

الازدواجيات وتعدد المراجات واللغات

بفضل الأستاذ محمد السرغيني
مفتش أول بوزارة التربية الوطنية
بالمملكة المغربية

القى الأستاذ محمد السرغيني محاضرة قيمة تصدى فيها لبحث مشكلة الازدواجية اللغوية فى التعليم بالمملكة المغربية ، وقد ابدى آراءه على ضوء خبرته فى هذا المجال مستهلا عرضه بالتعريف الصحيح لمدلول اللغة ثم اوضح بعد ذلك الفرق بين اللغة واللهجة قبل ان يدخل فى صميم موضوع محاضرته التي نقدم فيما يلى اهم ما جاء فيها :

مراعاة قوانين اصطناعية خاصة بتلك اللغة التي تكتب وتقرأ اكتر مما تستعمل في المخاطبة وهي خاصة لقواعد التحو والصرف والأملاء وغير ذلك .

ومما لا شك فيه ان هذا التحول في كلام الطفل وارقامه على النطق بالفاظ عربية جديدة تختلف جل المفردات المكتسبة بصورة طبيعية تلقائية وهذا امر لا يهون على عقل متعلم متبدئ صغير . وغير خاف على رجال الفكر والعلم والتربية ما لهذا التحويل من خطورة واضرار في تكوين الطفل وما له من آثار بالغة في نفسيته وتطوير عقليته .

وحسبنا دليلا على هذا التأثير الخطير ما يعنيه التلامذة من صعاب للتمكن من لغتهم الجديدة، وما يبذله المعلمون من جهود مستمرة للوصول بهم الى التعبير السليم تقد الفهم والتفهم .

ولعل هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل بعض المربين ينادون باستعمال اللغة الام ، اداة

الازدواجية العامة وقضية الفصحى والعامية :

... ولنق الان نظرة خاطفة على ما يطلق عليه الازدواجية اللغوية ، حاصلين بعثنا في النطاق المحدود للتعليم في بلادنا المغربية وما طرأ عليه من تغير خلال السنوات الأخيرة .

عندما يتحقق الطفل المغربي بالمدرسة لأول مرة يكون قد انتقل تدريجيا وطبعيا من مرحلة التكلم بلغة الطفولة العذبة الجميلة الى مرحلة اللهجة المحلية الخاصة التي تعلمتها عن طريق التقليد في المحيط العائلي والوسط القومي ، فتعمود منذ نعومة اظفاره استعمالها في بيئته اسرته ومجتمع اقرانه الصغار

وبمجرد دخوله الى حجرة الدرس في السنة السادسة او السابعة من عمره يجد نفسه امام معلم يخاطبه بلغة اخرى ، وان كانت هي الاصل ، الا انها تختلف اختلافا كبيرا عن العامية او الدارجة . فنرى طفلنا منذ اتصاله بهذه المؤسسة الموقرة يضطر الى

والتاريخ الحديث مليء بالامثلة البليفة الدالة على الجهود الجبارية التي كان ولا يزال يبذلها عدد غير قليل من الامم والدول في هذا السبيل حفظاً على استقلالها وضماناً لوحدتها .

الازدواجية الخاصة

هذه نظرة موجزة عن الازدواج اللغوي العام المشترك بين العرب . وهناك نوع من الازدواجية خاص بطبقة لا يستهان بها من المغاربة الناطقين بلهجات ببريرية كتشلحيت او تمازيغت مثلاً . فإذا كان الطفل التلكم بالعربية الدارجة تعترض سبيله عرقيلاً لا يحصى لها عد حين شروعه في تعلم العربية الفصحى ، فما بالك بالطفل الذي تعود استعمال لهجة محلية اخرى بعيدة كل البعد عن لغة الضاد ، وذلك رغم العوامل المؤثرة في نشر هذه اللغة من كثرة مواصلات واجهزة اذاعية وغيرها ؟ فمشكلة هذا الصنف من الاطفال ، في بعض القرى والبوادي ، تكتسي صبغة خاصة مترکزة في ازدواج لفتيان اثنين مختلف كل الاختلاف عن ازدواج العامية والفصحي عند الطفل الحضري .

ويزداد هذا المشكّل حدة اذا كان الطفل من النازحين الى المدن وضواحيها طلباً للعمل والكسب مع افراد اسرته . فانه كثيراً ما يرى نفسه ملزمَاً بتعلم الفصحى ، وهي لغة التلقين في المرحلة الاولى للتعليم ، وفي نفس الوقت تفرض عليه هجرته الى المدينة اكتساب لهجة عربية محلية عن طريق الاحتكاك اليومي بمواطنيه الذين أصبح يعيش في وسطهم الجديد بالنسبة اليه .

ومن الطاف الله الخفية انه يتلقى لهجهة الثانية بصورة عفوية دون ان يلجا الى معلم او مدرسة . ولكن لا ينفي ان يفتق عن الاذهان ما ينجم عن هذه «الثلاثية» (او التريكلوسى كما يعبر عنها الفرنسيون) من اضطراب وارهاق في تربية النساء وتكوينهن تكويناً سليماً .

وهكذا ، نشاهد طفلنا ، وهو لا يزال في بداية التكون ، يواجه صعوبات الازدواجية او الثلاثية احياناً .

الازدواجية الاستعمارية :

ويا جداً لو كان الامر يقف عند هذا الحد بالنسبة لاطفالنا ! لكن القدر شاءت ان تضاف الى

وسيلة للتعليم ، مقتربين عند ام شتى العمل قدر الامكان على التقارب بين التعبير الشفوي المتداول والتعبير الكتابي الفصحى .

اما بالنسبة لنا ، فالفرق لا يزال كبيراً والبون شاسعاً بين اللغة العربية واللهجات المحلية وانه لست اغلى ولا اعدو الحق اذا قلت ان تلميذنا يكون مزدوج اللغة ، بكل ما تنطوي عليه العبارة من معنى ، منذ اللحظة الاولى من حياته المدرسية .

والحقيقة ان قضية الفصحى والعامية ليست خاصة بالمقاربة وحدهم ، فهي تعم العرب جميعاً في مشارق الارض ومغاربها من المحيط الى الخليج ، والمصيبة ، كما يقول المثل ، اذا عمت هات ، ولكن ليس معنى هذا ، ان نضرب عنها صفحات ونتركها لسير التاريخ والاحاديث ، تفعل بها ما تشاء ، بل من واجبنا كمربين ان نقلي عليها بعض الاضواء وتناولها بالدرس والتبييض ، لعلنا نصل في يوم الى حلول نسبة تساعدنا على تبسيط عملية التربية وتسهيلاً لها .

والواقع هو ان المشكلة قد شغلت وما زالت تشغيل بالمربيين وتشير الجدل والمناقشة بين المفكرين في مختلف البلاد العربية منذ مدة يسيرة .

اذن ، فنحن عرب اليوم ، بين لغة فصحى يتفاهم بها بعض الناس في جميع البلاد العربية ، وبين اللهجات عامية متعددة اصبحت كل منها وسيلة للتفاهم في بعض المناطق المحدودة من البلاد العربية .

ولا حاجة الى القول بأن هذه الحالة مخالفة لافتراضيات الحياة القومية وكرامتها من وجوه عديدة ومؤثرة تأثيراً قوياً على المواطنين عموماً وال المتعلمين منهم خصوصاً .

فكل امة من الامم تحتاج الى لغة موحدة تزيد افرادها تجاوباً وتماسكاً فتشكل عاملـاً من اقوى عوامل التوحيد . لأن مهمة اللغة في الحياة الاجتماعية المقدمة الحالية لا تتحصر في ضمان التفاهم بين المخاطبين الذين يعيشون في قرية او مدينة واحدة ، ولا بين الذين ينتسبون الى اقليم او قطر واحد بل هي ضمان التفاهم والاتصال والتجاوب بين جميع ابناء امة على اختلاف مدنهم واقاليمهم .

السائدة في التأسيسي ، وفي ذلك من الناقص التربوي ما فيه .

فتصوروا معنـى لحظة ، ما يتطلـب اكتـساب لـغـة واحـدة والـتـصرف فـيـها مـنـ استـعـدـادـات فـطـرـية وـمـوـاهـبـ عـقـلـيـة وجـهـودـ مـضـنىـة منـ المـعـلـمـينـ والمـعـلـمـينـ عـلـىـ السـوـاءـ ، فـضـلاـ عـنـ كـوـنـ الـاـمـ يـتـعلـقـ بـتـعـلـمـ ثـلـاثـ لـغـاتـ بـالـنـسـبـةـ لـلـبـعـضـ وـارـبعـ بـالـنـسـبـةـ لـلـبـعـضـ الـاـخـرـ !

ان ازدواجنا الاصلـىـ لهـ وـحـدهـ منـ العـوـابـ السـيـئـةـ ماـ يـسـتعـظـمـ . وـطـفـلـنـاـ الـفـرـبـىـ كـسـائـرـ الـاطـفـالـ فـيـ الـعـالـمـ . لاـ يـمـكـنـنـاـ انـ نـحـمـلـهـ اـكـثـرـ مـاـ يـطـيـقـ .

ولـتـرـكـ فـيـ هـذـاـ الصـدـدـ الـكـلـامـ لـلـبـيرـ مـيـمىـ ليـعـفـ لـنـاـ اـزـدـوـاجـيـةـ الـاستـعـمـارـيـةـ . قالـ فـيـ كـتـابـهـ :

« وـصـفـ الـمـسـتـعـمـرـ » (فتحـ المـيمـ) :

« وـتـجـلـىـ هـذـهـ الـبـلـلـةـ الـجـوـهـرـيـةـ بـصـفـةـ خـاصـةـ فـيـ شـخـصـيـةـ الـمـسـتـعـمـرـ (فتحـ المـيمـ) ، وـتـكـسـىـ صـبـغـةـ رـمـزـيـةـ فـيـ اـزـدـوـاجـيـةـ الـاسـتـعـمـارـيـةـ . وـهـذـاـ بـعـجـرـدـ ماـ يـتـخلـصـ مـنـ الـاـمـيـةـ يـسـقطـ فـيـ هـوـةـ تـراـحـمـ الـفـتـيـنـ انـ سـاعـدـهـ الـحـفـظـ عـلـىـ ذـلـكـ لـانـ مـعـظـمـ الـذـينـ اـصـابـهـ الـاسـتـعـمـارـ لـاـ سـبـيلـ لـهـ اـلـىـ تـحـمـلـ مـشـاقـ تـلـكـ الـاـزـدـوـاجـيـةـ فـلـاـ يـسـتـعـمـلـونـ غـيـرـ لـفـتـهـمـ الـاـصـلـيـةـ الـتـيـ لـاـ تـكـتـبـ وـلـاـ تـقـرـأـ وـلـاـ تـكـنـهـمـ اـلـاـ مـنـ ثـقـافـةـ سـمـاعـيـةـ تـافـهـةـ مـشـكـوكـ فـيـ فـعـالـيـتـهاـ .

« اـجـلـ اـنـ هـنـاكـ اـفـلـىـةـ مـنـ الـمـقـفـينـ قـدـ تـشـبـهـواـ بـخـدـمـةـ لـفـتـهـمـ الـقـومـيـةـ تـخـلـيـداـ لـهـ وـاحـيـاءـ لـماـضـيـهـ الـرـاـخـرـ بـالـعـلـمـ وـالـعـرـفـ وـلـكـ هـذـاـ اللـوـنـ مـنـ الـثـقـافـةـ الـرـاـقـيـةـ قـدـ فـقـدـ مـنـذـ زـمـنـ بـعـدـ كـلـ اـتـصالـ بـالـحـيـاةـ الـيـوـمـيـةـ فـتـوارـىـ عـنـ اـدـرـاكـ رـجـلـ الشـارـعـ الـذـيـ اـصـبـعـ يـضـعـهـ فـيـ مـنـزـلـةـ الـمـخـلـفـاتـ الـمـقـدـسـةـ وـيـنـظـرـ اـلـىـ الـذـينـ يـحـمـلـونـ رـايـتـهـ مـنـ الشـيـوخـ الـفـضـلـاءـ كـمـاـ يـنـظـرـ اـلـذـينـ يـسـيـرـونـ وـهـمـ يـعـشـونـ فـيـ حـلـ قـدـيمـ

« وـيـاـ جـبـذاـ لـوـ كـانـ لـلـفـةـ الـامـ فـيـ الـحـالـةـ الـرـاهـنةـ سـلـطـانـ عـلـىـ الـحـيـاةـ الـاـجـتمـاعـيـةـ فـاستـعـمـلـتـ عـنـدـ الـوقـوفـ اـمـامـ شـبـاـيـكـ الـادـارـةـ وـسـيـطـرـتـ فـيـ الـمـواـصـلـاتـ الـبـرـيدـيـةـ . فـهـذـاـ اـيـضاـ لـمـ تـحـلـ بـهـ لـانـ الـصـالـحـ كـلـهـ ، اـدـارـيـةـ كـانـتـ اـمـ قـضـائـيـةـ اوـ فـنـيـةـ ، اـبـتـ اـلـاـ تـسـتـعـمـلـ لـفـةـ الـمـسـتـعـمـرـ وـهـيـ الـلـفـةـ الـبـارـازـةـ عـلـىـ الـصـوـىـ الـكـيـلـوـمـتـرـيـةـ وـلـفـتـاتـ الـمـحـطـاتـ وـالـشـوـارـعـ وـصـكـوـكـ الـمـخـالـصـ حـتـىـ اـنـ الـمـسـتـعـمـرـ (ـبـالـفـتـحـ)ـ الـذـيـ لـاـ يـعـرـفـ سـوـىـ لـفـتـهـ اـمـسـىـ غـرـبـيـاـ فـيـ بـلـدـهـ .

مشـكـلةـ اـزـدـوـاجـيـتـاـ الـعـامـةـ وـاـزـدـوـاجـيـتـاـ الـخـاصـةـ بـمـاـ فـيـهـ مـنـ لـهـجـةـ ثـالـثـةـ اـحـيـاناـ ، اـزـدـوـاجـيـةـ اـخـرـىـ مـنـ نـوـعـ غـرـبـيـ : وـهـىـ الـتـىـ تـسـلـطـ عـلـىـ جـلـ الـاقـطـارـ الـعـرـبـيـةـ فـيـ حـالـةـ سـبـاتـهـاـ وـرـكـوـدـهـاـ وـقـدـ اـخـذـ الـمـفـرـبـ تـصـيـبـهـ فـيـ هـذـهـ الـبـلـيـةـ عـنـ طـرـيـقـ الـاـحـتـلـالـ الـفـرـنـسـيـ جـنـسـوـبـاـ وـاـسـبـانـيـ شـمـالـاـ ، ذـكـ الـاـحـتـلـالـ الـذـيـ فـرـضـ لـفـتـيـهـ فـرـضاـ فـيـ الـمـيـادـيـنـ الـتـقـاـفيـةـ وـالـاـقـتـصـاديـةـ وـالـاـجـتـمـاعـيـةـ فـيـ طـلـيـعـتـهاـ طـبـعاـ مـيـدانـ الـتـعـلـيمـ . فـمـاـ لـبـثـ الـلـفـةـ الـاـجـنبـيـةـ اـنـ اـكـتـسـبـتـ مـرـافـقـ الـادـارـةـ وـبـسـطـتـ سـيـطـرـتـهاـ الـمـطـلـقـةـ عـلـىـ الـمـؤـسـسـاتـ الـتـعـلـيمـيـةـ لـتـنـفـذـ اـخـيـراـ اـلـىـ الـاـذـهـانـ وـتـسـتـولـيـ عـلـىـ الـقـلـوبـ وـالـعـوـافـتـ باـسـمـ الـتـقـدـمـ وـالـحـضـارـةـ وـالـقـنـيـةـ مـدـةـ نـصـفـ قـرـنـ تـقـرـباـ .

ولـنـخـتـصـ اـلـآنـ الـكـلـامـ عـنـ الـمـراـحلـ الـتـىـ مـرـ بـهـ تـعـلـيـمـنـاـ الـاـبـتـدـائـىـ الـعـصـرـىـ قـبـلـ اـنـ تـخـلـصـ لـوـصـفـ اـزـدـوـاجـيـةـ الـاسـتـعـمـارـيـةـ . فـتـعـلـيـمـنـاـ الـاـبـتـدـائـىـ فـيـ عـهـدـ الـاـحـتـلـالـ كـادـ يـكـونـ فـرـنـسـيـاـ صـرـفاـ فـيـ الـجـنـوبـ وـاـسـبـانـيـاـ فـيـ الـشـمـالـ ، اـذـاـ نـحـنـ اـسـتـثـنـيـاـ تـلـكـ السـوـيعـاتـ الـتـىـ كـانـتـ تـخـصـصـ لـمـادـةـ الـلـفـةـ الـعـرـبـيـةـ فـكـانـتـ مـيـزةـ هـذـاـ الـتـعـلـيمـ خـلـالـ السـنـوـاتـ الـاـخـيـرـةـ وـوـجـودـ لـفـةـ سـائـدـةـ وـاـخـرـىـ مـسـوـدـةـ كـمـاـ يـشـهـدـ بـذـلـكـ بـعـضـ الـمـرـيـنـ الـاجـانـبـ اـنـفـسـهـمـ .

وـمـنـ سـنـةـ 1956ـ دـخـلـ تـعـلـيـمـنـاـ الـاـبـتـدـائـىـ فـيـ مـرـحـلـةـ دـقـيقـةـ مـنـ حـيـاتهـ تـعـرـبـ فـيـهـ تـدـريـجـياـ الـقـسـمـ التـحـضـيرـيـ ، فـالـاـبـتـدـائـىـ الـاـولـ ، مـعـ بـقاءـ اـزـدـوـاجـيـةـ مـتـسـاوـيـةـ فـيـ الـاـبـتـدـائـىـ الـثـانـىـ وـالـمـتوـسـطـينـ . وـفـيـ السـنـوـاتـ الـثـلـاثـ الـاـخـيـرـةـ - قـبـلـ اـكـتوـبـرـ 1967ـ - رـجـحتـ الـكـفـةـ نـهـائـاـ لـفـائـدـةـ الـعـرـبـيـةـ ، فـاـصـبـحـ الـمـوـادـ الـاـسـاسـيـةـ كـلـهـاـ مـعـرـبةـ مـعـ الـاـحـتـفـاظـ بـعـشـرـ سـاعـاتـ اـسـبـوعـيـاـ لـتـعـلـيمـ الـلـفـةـ الـفـرـنـسـيـةـ لـاـسـبـابـ سـنـشـرـهـاـ فـيـ بـعـدـ .

فـمـاـ هوـ مـصـيرـ الـطـفـلـ فـيـ ذـلـكـ وـهـ طـبـعاـ مـسـيرـ لـاـ مـخـيـرـ ؟ اـنـاـ نـرـاهـ بـعـدـ اـزـدـوـاجـيـتـهـ الـاـصـلـيـةـ (ـعـامـيـةـ وـفـصـحـيـ)ـ وـاـزـدـوـاجـيـتـهـ الـخـاصـةـ (ـلـهـجـةـ مـحـلـيـةـ وـفـصـحـيـ وـعـامـيـةـ)ـ مـطـالـبـاـ بـتـحـمـلـ اـزـدـوـاجـيـةـ جـدـيـدـةـ ، لـيـسـ لـهـاـ مـنـ اـزـدـوـاجـيـةـ الـاـسـمـ ، لـانـ الـلـفـةـ سـائـدـةـ فـيـهـاـ قـدـ اـصـبـحـ الـمـرـبـيـةـ وـالـمـسـوـدـةـ هـيـ الـفـرـنـسـيـةـ . وـمـاـ يـزـيدـ فـيـ الطـيـنـ بـلـهـ اـنـهـ لـاـسـبـابـ مـوـقـنـةـ وـلـكـنـهـاـ قـاـهرـةـ تـرـجـعـ اـلـىـ قـلـةـ اـطـرـنـاـ الـتـعـلـيمـيـةـ فـيـ الـمـوـادـ الـعـلـمـيـةـ ، نـحاـولـ جـعـلـ الـلـفـةـ الـمـسـوـدـةـ فـيـ الـاـبـتـدـائـىـ هـىـ

ولا يرتاح له بال إلا إذا كان تعبيره بلغة المستعمر .
وخلالمة القول إن الإزدواجية الاستعمارية ليست من ذلك النوع الذي تتعارض فيه لهجة شعبية بجانب لغة فصحى مهذبة مع انتهاهما إلى عالم عاطفى واحد ، كما أنها ليست مجرد ثروة متوفرة الفائدة بتنوع اللغات مع الاتسام بالحياد المناسب : أنها مأساة لقوية ...»

مشكلة تعدد اللغات :

ولترجع إلى ما نحن بصدده ، وهو التأثير اللغوی في التكوين التربوي : عامية وفصحي أو لهجة محلية وفصحي ، أو عامية ولهجة وفصحي ، ثم إزدواجية دخيلة ، هذا هو ما يقاربه تلميذنا المغربي في التعليم الابتدائي العصري العمومي .

اما اذا ابتسم له الحظ فعبر الطور الاول الشانوى ثم وصل الى الطور الثاني منه فإنه يصبح «بوكليوت» (اي متعدد اللغات) بكل ما تحمل الكلمة من معنى بحيث يتحتم ان يحاول تعلم لغة او لفتين اجنبيتين علاوة عن العربية الفصحى وما تلقنه منذ طفولته الاولى من عامية او لهجة خاصة بالوسط الذي عاش فيه .

فلا غرابة ان يصل هذا التلميذ المسكين الى نهاية دراسته الطويلة المضنية منهوك القوى ولم يحصل سوى على قشور من تلك اللغات التي هي في الحقيقة اداة للتبلیغ لا غایة في حد ذاتها .

« وقد تحمّلت ضرورة الإزدواجية في الوضع الاستعماري بحكم استعمالها في كل اتصال وكل ثقافة وكل تقدّم غير ان الفرد المستعمر المزدوج اللغة لا يتخلص من قيود هذا الحصار الا ليواجه كارثة ثقافية ليس في امكانه ان يتغلب عليها بصفة نهائية .

« على ان عدم المطابقة بين اللغة الام ولغة التثقيف غير خاص بالمستعمر (بالفتح) وحده ولكن الإزدواجية الاستعمارية لا يمكن ان تقارن بغيرها لأن الحصول على لفتين ليس معناه امتلاك اداتين للتعبير فحسب بل هو المشاركة ايضا في عالمين ثقافيين وثقافيين والعالمان المعنيان هنا واللذان لكل منهما لغته الخاصة متنازعان متناضلان : الا وهما عالم المستعمر وعالم المستعمر .

« هذا واللهجة الام التي تغذيها احساس المستعمر (بالفتح) واهواهه واحلامه والتي يتحرر بها حنانه واندهاشاته وتنطوي على اقوى ما يمكنه من طاقة عاطفية هي اللغة بالذات التي انحاطت قيمتها وضاعت كرامتها سواء بين المواطنين او بين الشعوب . فإذا ما سعى وراء مهنة او مكانة واراد ان يعيش بين اهل بلده او سائر العباد تعين عليه قبل كل شيء ان يخضع للغة الاجنبية لغة المستعمرین الذين استعبدوه : فلا غرابة ان تخرج اللغة الام من المعركة التي يخوضها المناضل عن كيانها صاغرة مقهورة فلن يلبث هو نفسه ان ينظر اليها لامر ما يعين الاحتقار فيتجنّب استعمالها ويتجاهلها لدى الاجانب

مجموع اللغات واللهجات	اللغة الاجنبية	لغة التعليم في الثانوى	لغة التعليم في الابتدائي	لغة الطفل قبل الدخول إلى المدرسة	نوع التعليم
(3) 4 او 5	الاولى والثانوية اجبارية	العربية الفصحى	العربية الفصحى	العامية او اللهجة المحلية او هما معا	الاصل والحر المغرب
(3) 4 او 5	لغة اجنبية ثانية	الازدواجية	الازدواجية	»	الحر المصري
(3) 4 او 5	لغة اجنبية ثانية	الازدواجية	الازدواجية	»	العصري العمومي
(3) 4 او 5	لغة اجنبية اولى وثانية	اللغة الفرنسية	اللغة الفرنسية	»	تعليم البعثة

فماذا يستخلص من ذلك كله ؟

العربية ، وليس المقام مناسبا لشرح اسباب هذا الاختيار .

والحقيقة بالنسبة للجميع ، ان كل واحد يبحث عن تعليم متين ، يقدم بلغة واحدة في الابتدائي ، مع اجتناب اخطار الازدواجية الموجودة في غيره .

3 - اما فيما يخص الشعبتين الاخيرتين من حر عصري مغرب ، وعمومي عصري ، فيتميزان بازدواجيتها في الابتدائي والثانوي . والشعبية العصرية العمومية كما هو معروف هي المشتملة على جل التلاميذ المغاربة والتي يصرف عليها القسط الاولى من ميزانية التربية الوطنية ، فنجد اللغة العربية واللغة الاجنبية فيها تتنازعان من اجل البقاء ليحتفظ كل منهما بالدرجة الاولى في التعليم والتقفين ، وتقسمان الحصص الاسبوعية التي لا يمكن فيها للاسف الزيادة فيها لاسباب تربوية غير خفية عنكم .

وهذه الحالة التي أصبح الكل مقتنعا بأنها حالة استثنائية ، موقتة ، منافية للأنظمة التعليمية السليمة ، هي التي جعلت تعليمنا يدور في حلقات مفرغة ، ولاسباب عده ، اوجزها ايجازا في النقطة التالية :

1 - الازدواجية المعمول بها في الابتدائي لم يبق لها من الازدواجية الا الاسم بل أصبحت براء ، غير قادرة على اداء رسالتها التهذيبية لكون لغة التعليم في الاقسام كلها من التحضيري الى المتوسط الثاني صارت كما قلنا هي العربية ، ولم يحتفظ باللغة الاجنبية الا كلفة ثانية في الابتدائي الثاني والمتوسطين . ورغم الحصص المخصصة لها ، فلا اطربنا التعليمية الابتدائية المغربية ، ولا طرق التعليم المتوجه بقادرة على اخراجنا من الورطة يجعل اللغة الاجنبية في المستقبل اداة صحيحة لهم العلوم وتمثيل التقنيات ، الشيء الذي يؤدي حتما الى عملية تحويلية خطيرة في الثانوي .

2 - الازدواجية الحقيقة التي مكنت بعض المغاربة من التصرف في لقتين اثنتين ، تصرف المالك في ملكه ، والتي كثيرا ما كان يرجع الفضل فيها الى الجهد المبذولة داخل المدرسة وخارجها من طرف المعنيين بالامر انفسهم ، اقول ان هذه الازدواجية صارت في خبر كان .

اذا ما طرحنا من الحساب لغة الطفل قبل دخوله الى المدرسة ، سواء كانت هذه اللغة عربية عامية ام لهجة من اللهجات المحلية ، يظهر لنا يلقى نظره على الجدول ان عدد اللغات الملقنة متساو في كل نوع من انواع التعليم ، لغة اصلية ولغتان اجنبيتان ، بحيث لا حاجة الى التشاؤم . ولكن الشيء الذى يتحتم علينا تكريمه ، لنا كلمتنا فى التكوين ، هو الحكم على عمق المسائل لاعلى ظواهرها . فالامر هنا ليس متعلقا بعدد اللغات ، بل فى درجة استعمالها اي اعتبارها كلفات أساسية للتعليم والتلقين ، او كلفات ثانوية تكميلية للتشريف .

1 - ان الحالة عادية وطبيعية في الشعبية الاصلية والحرفة المغربية حيث الامور تجري مجراما الطبيعي وفقا للمناهج المطبقة فيسائر البلدان المتقدمة : لغة اصلية موحدة في الابتدائي هي العربية الفصحى ولغتان اجنبيتان في الثانوى . وهذه الشعبية ، هي مثال التعليم النموذجي القسمى للمستقبل ، اذا ما توفرت على الاطر الصحيحة والتجهيزات الضرورية

2 - وكذلك الامر في تعليم البعثة ، فان الحالة طبيعية بالنسبة للجانب الذين يتلقون تعليما ابتدائيا متبينا بلغة اصلية موحدة هي الافرنسية تضاف اليها لغتان اجنبيتان في الثانوى . ولكن بالنسبة للمغاربة الذين اختاروا لابنائهم هذا النوع من التعليم ، فالحالة مخالفة تماما المخالفة لما سبق . فلغة تعليمهم هي الفرنسية عوض العربية التي لا يتعلمونها الا كلفة اجنبية في الثانوى .

فحصصها الاسبوعية ضئيلة طبعا ، ويرامجها خاضعة لنظام دخيل . فمن اجل ذلك ، لا يمكن للمتخرج من مدارس البعثة ، باستثناء بعض الشواذ ، ان يعرف من اللغة العربية وآدابها وعلومها وحضارتها الا المقدار الذي يعرف عن الانجليزية او الاسпанية ، من اختيار هذه اللغة او تلك في دراسته الثانوية . وقد نجد من التلاميذ من يعوضون لغتهم القومية بلغة اخرى من اللغات الحية اما في البداية ام في النهاية ، الشيء الذي يؤدي الى انفصال يكاد يكون كليا عن معالم الحضارة العربية والقومات الإسلامية .

كما ان هناك صنفا من المواطنين الاسرائيليين المغاربة ، لا يقبلون الا على تعليم البعثة ومعظمهم يختارون في دراستهم الثانوية كل لغة اجنبية الا

وتكون هذه الاطر ، وان كان عسراً ، هو وحده الذى سيمكنا من حذف اللغة الاجنبية من الابتدائى ومتابعة عملية التعریب سنة بعد سنة فى الثانوى ، فترجع المياه الى مغاربها الطبيعية ويصير تعليمنا مسايراً للأسس التربوية المعمول بها عند كثير من الامم الناهضة :

تعليم ابتدائى قومي موحد ، لغته العربية وتعليم ثانوى موحد ايضاً، لغته العربية، مع الاحتفاظ بلغة اولى حية ولغة ثانية اذا اقتضى الحال ذلك ، نظراً لمكانة هذه او تلك في ميدان الحضارة والمسلم والتقنيات .

واعتقد ان دراسة لغة اجنبية واحدة ، ابتداء من الطور الاول الثانوى، دراسة متقدمة وبالاساليب السمعية البصرية الحديثة كافية تمام الكفاية ، لمن يود في المستقبل التخصص في العلوم والتكنيات . ومن الطلبة في عصرنا هذا ، من يتوجهون الى الخارج لاول مرة ، بعد حصولهم على الباكلوريا ، فيقضى سنة كاملة في تعلم لغة اجنبية من الاف الى الالاف ، يستعملونها كاداة في تعليمهم العالى . فما بالك اذا كانوا قد درسوا تلك اللغة كما قلنا خلال سبع سنوات وبخصوص مناسبة ، قبل اقبالهم على التعليم العالى .

ويجب ثانياً ان نفك مع اخواننا العرب في الوسائل التي ستساعدنا في المستقبل البعيد على التخلص من بلبلتنا الحالية ، كما اشرنا اليها في اول حديثنا ، حتى ننعم بنعمة لغة موحدة وموحدة ، في جميع الاقطان العربية .

ولقد خطر ببال كثير من المفكرين واللغويين ثلاثة سبل اساسية للوصول الى هذه الغاية :

1) السعي وراء نشر وتعيم لغة من اللغات الدارجة ، اي لهجة من اللهجات العامية على جميع البلاد العربية .

2) السعي وراء نشر اللغة الفصحى ، بين جميع طبقات الشعب في كل قطر من الاقطان العربية

3 - السير على طريقة متوسطة بين الاولى والثانية على اساس تعليم اللغات الدارجة باللغة الفصحى .

ولا حاجة للبيان ان الطريقة الاولى ، اي طريقة تعليم لغة من اللغات الدارجة على جميع البلاد العربية ،

ولم يبق كما اشرت الى ذلك فيما سلف ، الا ناطق بالعربية على قدر الامكان ، وبالفرنسية او الاسپانية في نطاق محدود ، او محضرم تفاوت معرفته في هذه او تلك ، لا هو يحسن الاولى ولا هو يحسن الثانية .

3 - واذا كانت نتائج التعليم قد اتصفت بشيء من الجودة في فترة من حياة الحماية وبعدها بقليل ، فلم يكن يرجع الفضل في ذلك الى الازدواجية ، حيث لم تكن هناك ازدواجية بل لغة غالبة ولغة مغلوبة ولغة مسيطر عليها .

كان الفضل في النتائج المحصل عليها يرجع اولاً واخيراً الى كفاءة المعلمين واساذه واساتهن كل الایمان بأداء رسالتهم ونشر لغتهم . اضف الى ذا وذلك قلة المتعلمين وحرص تلك الاقليية على التحصيل ، دون ملل او كلل . فلغة التعليم كانت لغة المستعمر ، واللغة العربية انما كانت تعلم بقصد التبرك ، وقد كان في ذلك بالفعل من البركة ما كان .

4 ان جميع الاموال التي تصرف في تعليم قشور من اللغة الاجنبية في الابتدائى ، تذهب هباء منثوراً بالنسبة لجميع الاطفال الذين يتعلّر عليهم الدخول للثانوى حيث لا يمكنهم الارتفاع بها حتى في بيئتهم الاجتماعية .

5 - أما بالنسبة لمن يلجنون ابواب الثانوى ، فتنعكس الآية ، وتصير اللغة التي كانت السائدة هي المسودة والعكس بالعكس . وعملية بهذه ، زيادة على ما تتطلبه من مصاريف باهظة واستيراد من المعلمين والاساذه ، تقتضي تحويلاً في الماكاسب والمفاهيم ، وتغييراً في الطرق والاساليب لا مثيل له في النظم التعليمية السليمة . وهذه النقطة بالذات هي التي تستر على اهتمامنا كعرب وتحتم علينا ان نفك مع المسؤولين في ايجاد الحلول الناجمة لها لصالح الوطن والمواطنين .

الخطول المقترحة

يجب اولاً التفكير جدياً في حل جذرى نهائى لشكلة الازدواجية الدخيلة بحيث تصير لغة التعليم موحدة في جميع أنواعه . وهذا لا يتأتى طبعاً الا اذا وضع تصميم محكم ، مدقق لمدة محددة يضمن تهيئه الاطر اللازمة لتعريف كل المواد الدراسية سواء كانت أدبية ام اجتماعية ام علمية ورياضية .

هذه القوانيين او صدتها عن عملها ، اذ لا نستطيع الى تغييرها سبيلاً ولن نجد لستتها تبديلاً

هذه ايتها الاخوة نظرة مختصرة عن قضية الازدواجيات ، ومشكلة تعدد اللغات ، وائز ذلك كله في تربية ابناء الشعب العربي عموماً وابناء المغاربة خصوصاً . وانت ترون معنى ان لكل مشكل وجهاً خاصاً ، يتطلب حلولاً جذرية على الصعيد المحلي ووجهاً آخر عاماً يقتضي بعض الحلول الممكنة على صعيد عالمنا العربي .

ومهما يكن من امر ، فاذا ما تغلبنا على حل مشكلنا الخاص المتعلق بالازدواجية الدخيلة وتنظيم دراسة اللغات الاجنبية في مدارسنا ، تكون قد قطعنا اشواطاً بعيدة في طريق التربية والتعليم .

ونكون قد ضربنا بالحجرة عصافورين . لان استعمال لغة موحدة وموحدة في التعليم معناه التعمير الشامل والتوحيد الكامل ، وتحريم المغربة ، والسير بخطى ثابتة نحو قسط لا يستهان به من سياسة التعليم . وهي المبادئ التي اتفقت عليها بالاجماع اللجنة الملكية للتعليم ، تلك اللجنة التي كنت احد مقرريها .

وفي الختام ، انى لاعتقد اعتقاداً جازماً واقول مع المستشرق المغربي ، يوهان فالك : « قد يرعن جبروت التراث العربي التالد الحالى على انه اقوى من كل محاولة يقصد بها زحزحة العربية عن مقامها المسيطر . واذا صدقت البوادر ، ولم تخطر الدلائل ، فستحتفظ ايضاً بهذا القام العتيد » ، من حيث هي لغة المدينة الاسلامية ، ما بقيت هناك مدينة اسلامية »

واملنا اخيراً ان يردد ابناءنا في القريب ، والابتسامة تعلو محياهما ، والفرح يملأ صدورهم : « المغرب وطننا والمغاربة لقتنا ، وعليها وعلى رب العالمين ، نعتمد في تربيتنا »

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

غير منطقية وغير عملية . فلابد اذن من التوجه الى اللغة الفصحى ، التي لها جذور عميقة واسس متينة ، وممثلون اقوياء في جميع الاقطار العربية . فيبقى الحل منحصراً في الطريقتين الاخيرتين وحدهما ، اللتين لا زالتا تتطلبان القيام بابحاث علمية واسعة النطاق ، تتناول اللغة الفصحى واللغات الدارجة في وقت واحد وتدرس القضية بجميع تفاصيلها ، وتقلب المسائل على جميع جوها .

ومن المعلوم انه اخذ يتكون في بيئات المثقفين في جميع البلاد العربية ، وذلك منذ زمن نوع من لغة التخاطب ، يطلق عليها بعض المستعربين اسم « العربية العصرية » اقتبس الشاعر الكبير من خصائص الفصحى ، وتباينت عن الكثير من الاساليب العلمية .

فيجدر بنا ان نتعقب ونتوسع في دروس هذه التطورات وتدوينها لاستفيد منها ونستنير في تقرير خططنا الاصلاحية .

وقد اثار الاستاذ هنري بيريس ، في مقدمة كتابه « الآداب العربية والاسلامية من خلال النصوص الى التخلص من هذه الازدواجية الخطيرة كما سماها »

« يمكننا ان نتصور بسهولة ، حل المشكل ، وهذا الحل سيأتي به الزمان . نعم ، فباتشار التعليم ، ستتطور اللهجات ، دون ان تنفرض نهاياء ، وستقترب شيئاً فشيئاً قليلاً قليلاً من اللغة الفصحى ، التي ستزداد هكذا بالفاظ جديدة »

وفي هذا الباب، عقد الاستاذ الكبير، الدكتور على عبد الواحد وافي في كتاب فقه اللغة، فصلاً فيما لم ار اداً ان يتسع في مشكلة اختلاف لغة الكتابة عن لغة الحديث ، مضمته ان الطريقة المثلى هي ان ندع الامور تجري في مجاريها الطبيعية . فللفة قوانينها وللظواهر الاجتماعية نواميسها التي تسير عليها ، ومن ضياع الوقت في غير جدوى ان تحول مجرى